لم وكيف يجب ان نفهم القرآن؟

*أ.م.د. يشار دوزنلي ** *

ملخـص

القرآن الكريم هو جواب ورد الهي على من له سؤال ومشاكل. وقد القي هذا الجواب على قلب محمد بن عبد الله في بقعة بالحجاز في العصر السادس الميلادي. وبلّغَ هذا الجواب من فمه الشريف حلقاته القريبةَ ثم الى الانسانية جمعاء بدون نقصان ولازيادة.

وهذا الجواب الالهي الذي جاء خطابا ثم الف كتابا ووصل الينا دونما تغيير ولاتبديل ولاتحريف، ينتظر اللقاء بالذي له اسئلة ومشاكل حول حياته والذي يشعر بمسؤوليته.

ونحن في هذا المقال تكلمنا اولا عن أهمية هذا اللقاء - وفي الحقيقة تعريف القرآن نفسه كأحد طرفي التخاطب - ثم تكلمنا عن كيفية هذا التفاهم والفهم لكى يتحقق هذا اللقاء على الصعيد المستقيم.

الكلمات الدالة: القرآن الكريم، الجواب الالهي، الخطاب، القرآءة، الفهم، النص، التخاطب.

التمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين، وبعد.

فإن السؤال: لم وكيف يجب أن نفهم القرآن؟ يشير الى ثلاثة مواضيع أساسية. أولها: نفس القرآن موضوع السؤال، وثانيها: هو ضمير "نحن" الذي في موضع المخاطب والذي يحقق عملية الفهم، وثالثها: المفهوم الذي نتوصل إليه.

فيا ترى، ما هو القرآن موضوع البحث؟ يمكننا ان نبين ماهية القرآن من زاويتين؛ احداهما: تعريف القرآن لنفسه من ناحية مصدره، ومن ناحية مخاطبته للإنسان؛ ومامو قعه من هذه النواحي؟ وما هي الميزات التي تتصدر الموضوع حين يقدم نفسه للبشرية؟ وما هي المعطيات التي يقدمها القرآن؟ وماموضع علاقة القرآن بالانسان كآخذ ومعط وكطرف أول لمخاطبه، لتعريف يرغب بفهمه؟ ما الأشياء التي يتوقعها الـ"أنا" منه؟ وهل تتطابق الأشياء التي يتوقعها منه والتي وعد القرآن بأن يقدمها له؟ وهل المطلوب في هذه النقطة هو المفهوم والتلاؤم المشترك؟ ام أنا احمله عن الموضع الذي يضع هونفسه فيه، الى مكان اتخيله انا في نفسي ظاهرا في دور المتماطل حسب رغبته وهواه. فيا ترى، هل يتجاوب القرآن مع العوامل والمفاهيم التي قيمتها حسب قيمي الذاتية؟ سنحاول دراسة هذا الفصل في إطار السؤال: "كيف يعرف القرآن نفسه؟"

فإن كنت قد وافقت وآمنت بدور القرآن الذي اختاره هو لنفسي وآمنت باتخاذه لي كرفيق، حسب شروطه التي اختارها هو؛ فما الواجبات المتعلقة بي انا والتي يجب علي أن أؤديها؟ سندرس هذا الفصل تحت عنوان "الشروط المبدئية للمخاطبة".

وفي نتيجة إطار تكوين القرآن الألفة واستدامتها بينه وبين الـ "أنا"، يتوجب علينا تثبيت التفاهم الصحيح وتعيين طريقة التفاهم المتبادلة ومعرفة شروطها المثلى والواقعية وتلاؤمها مع الحوادث. وسنحاول دراسة وبحث هذه المزايا تحت عنوان "شروط فهم القرآن فهما صحيحا". إلا أننا يجب أن نضيف في الحال أن ما سجلناه نحن هنا، ما هو إلا إطار يتعلق بالموضوع لا غير. ويجب أن نضع نصب أعيننا أن ما أشرنا اليه بشكل مختصر في كل عنوان، أطال فيه العلماء قديما وسيسرده غيرهم كذلك في المستقبل.

المبحث الاول
كيف يعرف القرآن نفسه؟

إن القرآن الكريم، حسب التعريف المتفق عليه هو "كلام الله تعالى المعجز المنزل على الرسول محمد (ص) وحيا،

* كليـة الإلهيات، جامعة عثمان غازي، أسكي شهير، تركيا.
تاريخ استلام البحـث 2003/9/8، وتاريخ قبوله 2004/8/15.

المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته"[1]. وكل عنصر من عناصر هذا التعريف، يلفت النظر في الغالب على ناحية إطار القرآن نفسه الموجود بين أيدينا. وبذا يدل على إحدى ميزاته التي تميزه وتفصله عن الكتب الأخرى وتحدد إطاره. وعند ما نتحدث عن تعريف القرآن لا نقصد الوقوف عند المميزات التي أشارت اليها هذه التعريفات، بل نقصد الهداية الربانية، كخطاب نزل في إحدى فترات التاريخ ليخاطب البشر، ومن ثم تم تسطيره في الصحف وتحويله إلي نص كتابي. وهنا يخطر ببالنا سؤال: ما العوامل التي تعهدها هذا النص الذي يستند في أساسه على "المخاطبة"، حين يطرح دعواه في المستوى العالمي للخطاب السماوي – البشري؟ وبتعبير آخر، ما المشاكل البشرية التي تعهد هذا الخطاب بحلها؟

إن الفاتحة التي تؤلف أول سورة من سور القرآن حسب ترتيب السور، تمثل الخطاب النموذجي بين الإنسان وخالقه، فالفاتحة بمعناها اللغوي هى المدخل إلى القرآن الكريم. وهناك مسميات أخرى لهذه السورة، مثل "أم الكتاب" (أي أساس الكتاب) و"الأساس" (أي المحور). والفاتحة بالإضافة الى تعزيزها بمعان أخر، فإنها بمثابة الخلاصة للقران الكريم. ومن ناحية محتواها فهي تحتوي على تخاطب الطرفين، الطرف الأول فيها هو الله – عز وجل- والثاني هو الإنسان. والبادئ بالتخاطب هو الخالق، فهو يعرف نفسه للإنسان في الآيات الثلاث الأول. وهنا تبدأ أول خطوات التخاطب المستمرة وترسيخ تعارف المخلوق وخالقه. وعندما يتسنى للإنسان هذا التخاطب التمهيدي، يصر وبصورة مستمرة على الوصول الى غايته في طلب "الصراط المستقيم". وهنا يرد الله –جل جلاله- في الحال في السورة الثانية، سورة البقرة على طلب الإنسان الذي يبدي ويجدد طلبه في الاهتداء الى "الصراط المستقيم" لتحقيق العدالة والتوازن في كل زمان ومكان: "**الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**". وكما هو مفهوم من هذا الكلام، فإن القرآن؛ هو الدليل الوحيد الذي يهدي الذين يعون مسؤولياتهم إلى الطريق السوي والذي يصفهم بـ"المتقين". وبتعبير آخر، فإن القرآن هو الدليل الوحيد الذي يعتني بهداية الإنسان المتقي نحو القيام بالأعمال الصحيحة والمتوازنة.

وكلمة "الهداية" هذه التي عبرنا عنها بالدليل والمفتاح، تدل على استقامتين: أولاهما تتعلق بكيفية تعيين الإنسان تقييمه للحقائق التي يعيش في خضمها واسباغها معناها. وثانيتهما أسباب العمل الكيفية والكمية التي يقوم بها ضمن هذا الاستيعاب؛ كهاد للعمل الأصح المناسب للمعنى. فإن القرآن يقدم نفسه كهداية لكيفية التصرفات المناسبة لهذا المغزى، والحياة التي يعيشها الإنسان.

إن كلام الله تعالى الذي تجسد في فترة من فترات التاريخ يتميز بروحه الإعجازية بمخاطبته للإنسان في أي مكان أو عصر. ولهذا فهو يقوم بأداء دوره الدليلي لسد ضرورات الإنسان في كل مكان وعصر متماشيا مع صفته الإعجازية، ولذا لم يتسم باسم واحد بل وصف نفسه بصفات تنعكس في جميع الميادين التي يحتاج إليها الإنسان لديمومة حياته المعيشية التي يعيشها في الدنيا كـ"إنسان". مثلا، ان الإنسان المركب من المادة والروح، حين يحتاج إلى "الروح" - المتحدث عن ماهيتها كثيرا- ليحافظ على ديمومة حياته، يجد القرآن يقدم نفسه بأنه "الروح" (الشورى، الآية 52). وحين يسرد التحاليل من هذه الزاوية فإننا نرى أن القرآن يصف الذين لا يحيون قلوبهم وأرواحهم وعقولهم وأفكارهم بحيوية الوحي القرآني بأنهم "أموات" ومجتمعهم الذي يشكلونه بـ"من في القبور" (فاطر، الآية 22) وفي هذه النقطة فإن الرسالة السماوية تكتسب صفة "**لما يحييكم**" (الانفال، الآية 24).

وعندما يستوعب الإنسان الأشياء التي تحيط به، بصورة سليمة؛ فهو يحتاج إلى القبس الذي يشعه القمر أو الشمس، كي يعين موقعه الصحيح منها، حسب استيعابه السليم. فإنه يستحيل على العين المجردة أن تؤدي وحدها ما عليها بصورة سليمة أو تامة؛ لذا فهي تحتاج إلى هذا القبس لأداء ما عليها بشكل تام وسليم. وهنا يتدخل القرآن لأداء دوره، فيوضح بأنه "النور" المتسرب الذي ينبع من مصدر الضوء (النساء، الآية 174)، والقرآن يعلن للذين لم يحصلوا على نصيبهم من هذا النور، بأنهم "عمي" (الرعد، الآية 16). ويخطو القرآن هنا خطوة أخرى فيعلن بأنه "بصائر" من عند الله (الانعام، الآية 104). والذين يعيشون دون أن يحظوا بحصصهم من هذه البصائر، يعلن بأنهم سيفقدون بصائرهم في الآخرة (طه، الآية 125).

هذا، ويحتاج الإنسان الذي يسعى في وضع الأمور التي تتعلق به وترتبط في حياته المعيشية في نصابها الصحيح؛ إلى قابلية التمييز بين الخطأ والصواب. ويسمي القرآن هذه الحاجة "الفرقان" أي قابلية التفريق. ويسمي نفسه أيضا "الفرقان" اي محقق التفريق (البقرة، الآية 185)؛ هذا بالإضافة الى تسميته لنفسه "القول الفصل" (الطارق، الآية 13).

وحين يحتاج الإنسان الموسوم بالنسيان إلى التذكر أو التذكير، يكون القرآن له آنذاك "الذكر" (النحل، الآية 44)؛ وحين التعلق والاعتصام به يكون له "حبل الله" (البقرة، الآية

102)؛ وحين التمسك بالحبل الوثيق يجده تجاهه كـ"العروة الوثقى" (البقرة، الآية 256)، وبجانب هذا فان القرآن لما اراد ان يكون رفيقا ووليا لمخاطبه، طلب منه ازالة جميع الوسائط من بينهما (الاعراف، الآية 3)، وتعليلا لهذ الطلب يصف القرآن نفسه بأنه حجة ورسالة، وبيان من الله (آل عمران، الآية 138)، وبينة (الانعام، الآية 57) وبلاغ (ابراهيم، الآية 52). وقد ذكر الإمام الزركشي (796/754) ما يقرب من 55 اسما للقرآن، كل يدل على عمل معين.[2]

وخلاصة القول في هذا القسم، هو أنه متى وأينما احتاج الإنسان إلى دليل رباني ليهتدي به، يجد القرآن أمامه حالا وفي تلك اللحظة ليؤدي دوره لسد حاجة الإنسان في تلكم النقطة ودون انقطاع. ولهذا فإن القرآن في أثناء اتصاله الخطابي بالإنسان، يصف اعماله بالرغم منه على أنها "انما يتبعون أهواءهم" (القصص، الآية 50).

المبحث الثاني
كيف يجب أن نقرأ القرآن؟

حسب هذا السؤال، سنقف حول كيفية تقاربنا نحو القرآن الذي يشكل الموضوع المتكامل للمفاهيم، من وجهة نظر الـ"أنا"؛ المعنى الذي ينبغي عليه أداء مهمته في تحويل عملية الفهم إلى الفعل، وهذا نوعا ما التمهيد المبدئي لي قبل ولوجي في بحثي للمفاهيم المتكاملة للقرآن. ويمكننا تثبيت النقاط التالية في هذا الموضوع منطلقا من القرآن الكريم:

1- قبل الشروع بقراءة القرآن يجب اللجوء إلى الله من الأفعال الشيطانية

وحسب التعبير الاصطلاحي المميز للقرآن البدء بـ"الاستعاذة". ويصرح القرآن بهذا الموضوع في الآيات (98- 100) في سورة النحل: "**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.**"

فعلى ماذا يدل بدء تلاوة القرآن بالاستعاذة؟ فهنا يجب ان نركز لغويا على الاصطلاحين الاساسيين، الاستعاذة والشيطان، لان الاستعاذة من هذه الناحية تفيد المراحل الذهنية التى تمر بها عملية الاستعاذة؛ والشيطان يفيد رحلة ابتعاد الافكار عن الله.

والاستعاذة هي جملة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"؛ وهى تعني "أني الجأ إلى الله من الشيطان المطرود". ومغزى الاستعاذة التي تدل على اللجوء، تفيد هنا معاني مرحلية متداخلة في نفسها هي "الاستعاذة" والالتجاء ثم العصمة[3]. والاستجارة اي "طلب الجوار" هي مغادرة الفرد مكانه ذهنيا واللجوء إلى مكان آخر، وكذا فإن مرتل القرآن في حالته الروحية والعقلية الراهنة - التي سنوضحها بعد قليل- حريص على الابتعاد والتجرد عن كل نوع من أنواع التقارب والمفاهيم الشيطانية، مع وضعه إرادته الحقيقية تحت طلب الهجرة إلى الله. والاستجارة هي السير قدما روحيا نحو المعنى الإلهي، ونهاية مطاف السير الذهني هذا كما في كل شيء حتى نهايته وهو الله (النجم، الآية 42). والمسير الروحي الذي يصل إلى هذه النقطة، يكون في وضع اللاجئ؛ واللاجئ إلى الله فحسب، متحررا من أي تأثير خارجي، يكون في وضع طالب المأوى منه. وفي المرحلة الثالثة يعتصم المرتل بالمأوى الذي لجأ إليه، بكل ما أوتي من قوة ذاتية وحسية، وبذا يكون قد رسا إلى مرحلة العصمة، مستسلما بكل وعيه.

إن كلمة الشيطان مشتقة من جذر الفعل "شطن". والكلمات المشتقة من هذا الجذر تشترك في معانيها بـ"ابتعد" و"اغترب" و"عجم". وانطلاقا من هذه النقطة، يمكننا أن نعرف كلمة الشيطان؛ بأنها كل فعل يستهدف المبادئ والنيات السائدة المخالفة لمبادئ الاخلاقية والشرعية، مبتعدا عن الصفات السماوية.[4]

والمعروف أن الإنسان بالرغم من أنه مجبول على الفطرة الصافية، فهو لضرورة نشأته في محيط اجتماعي معين وفي فترة محددة من فترات التاريخ، إلا أنه يعيش بفطرته السليمة هذه وهو مطوق بالسجون، وهذه الضرورات تجعل الإنسان غريبا نحو نفسه وعلى القيم التي جبل عليها. أما الدليل السماوي، فهو يمنح للإنسان ادامة حياته على الفطرة السليمة بمنعه من التغريب تجاه نفسه والكائنات جميعا، ولكي يصل الإنسان هنا إلى دلالة الوحي، ويكشف السبيل الذي يؤشر عليه، يجب أن يرجع لنفسه ولو كان مؤقتا وعلى اقل ما يكون يجب تحرير حواسه السمعية والعقلية والقلبية من النفوذ الشيطاني وأفعاله. والإنسان رغم كل هذا؛ بما يملكه من العقل وما يحمل في الفطرة، يستطيع أن يحقق هذه الأفعال، ومنذ البداية فانه يستحيل على الإنسان أن يتقبل المخاطبة بالذي يعتبره عدوا وخصما لدودا له، فكيف به بالإذعان إلى مشورته؟ ومن ناحية أخرى فإننا نرى أن الوحي؛ ما هو إلا رد الهي على الإنسان المفكر والسائل. ولتسلم الجواب والرد عليه بشكل سليم يجب عليه أن يوجه سؤاله أيضا بشكل سليم.

ونستطيع أن نحكم بأن المرتل السليم للقرآن عندما يبدأ بالاستعاذة فانه يكون بذلك أشبع حاجته الروحية، ولو اعتبرناه

لم يؤدها، فعلى الأقل سيظهر حساسيته الفطرية لتعرفه على صاحب الكلام الإلهي. ولا ننسى أن الله يوصي النبي (ص) بتذكيره المتقين الذين يخشون الوعيد الإلهي، عن طريق القرآن (ق، الآية 45).

2- **التلاوة باسم الله ولله**

ويجلب الله النظر في سورة العلق، أول سورة أنزلت في القرآن الكريم إلى هذا الموضوع بقوله تعالى" **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ**" (العلق، الآية 1). ويوصف اسم الخالق في آية أخرى بـ "الرحمن الرحيم" (النمل، الآية 30). هذا وان محمدا – ص- المخول الوحيد لافضل تفسير للقران الكريم يقول:كل أمر ذي بال لم يبدأ باسم الله فهو أبتر أو أقطع[5]، ولا يوصى بالبدء بالبسملة قبل الشروع في تلاوة القرآن فحسب بل قبل الشروع بأي عمل ما.

وهنا يجب لفت النظر إلى نقطتين إحداهما تاريخية والأخرى عالمية. والمعروف عن النصارى واليهود وحتى عن مشركي مكة انهم كانوا يباشرون أعمالهم قبل نزول القرآن ببعض الجمل، هي بمثابة توثيق لشعورهم العقائدي واستمساكهم به. فعلى سبيل المثال، فان مشركي مكة كانوا يبدأون بأعمالهم المهمة بقولهم:باسم اللات والعزى[6]. وبهذا يكونون قد وضعوا القوة المؤثرة لأعمالهم والمحددة لها. وقبل كل شيء فان المسلمين بشروعهم بالبسملة في جميع أفعالهم يبرهنون على انهم قد تبرأوا من حياتهم السابقة في فترة اللات والعزى، وانهم ليسوا كالقطيع الذي يوجه أينما يراد له دون إرادة ذاتية.

ومن ناحية أخرى فان الإنسان كما يقول المفسر الكبير الرازي[7] بـ"باء" البسملة يكون قد عقد عقله وقلبه وإرادته بالإرادة الإلهية، وبذا يكون قد جدد وعيه في السعي حسب الإرادة السماوية. وهنا فان البسملة مفتاح أمن معنوي لاكتساب الأفعال لمشروعيتها، ومن دون شك فان الانقياد العقلي للإرادة الإلهية سيؤدي إلى التفكير في مدى رضاء الإرادة الإلهية من الأفعال المنفذة.

والقارئ بتقاربه العقلي هذا يكون قد حدد مبدأ آخر هو مبدأ ضرورة تلاوة القرآن دون أي تأثير مسبق، وان القرآن أو أي كتاب آخر لا يقرأ إلا بمعلومات أولية؛ غير أن بعض الحزازات النفسية المسبقة قد تقف حجر عثرة أمام الاقتراب السليم للكتاب المفروض قراءته. والحزازات المسبقة هذه بالنسبة للقران ما هي إلا "الأعراف أو العرف" (النساء، الآية 83؛ الاعراف، الآية 175؛ يونس، الآية 90؛ القصص، الآية 50). والقصد من العرف هنا هو الانقياد الأعمى للعادات وثقافة الأجداد التي تعمي البصيرة وتصم الآذان.

وعندما يبدأ مرتل القرآن بالاستعاذة ثم بالبسملة فانه بذلك يسند التفكير الذهني النافذ بدعم ثان يقوي الفترة الذهنية؛ وبتغذيته بالبسملة مباشرة من المصدر، يكون قد اسبغ عليه معنى متكاملا اكثر. وتصدير صفتي الله في الرحمة الموجودة في جملة البسملة خاصة، له أهمية كبيرة من ناحية تكوين المعنى في عقل المرتل، المتعلق بهداية الله.

3- **التلاوة في جو ملائم وفي ظروف وضعية ملائمة**

المفروض أن القرآن يتلى للاستفادة منه وليس للتلاوة المجردة فحسب ولهذا فمن الضروري العناية بملاءمة الجو للاستفادة منه، لذا يجب توفير الجو الملائم لاستعمال حواس السمع والعقل والقلب معا. وقراءة نص قليل ولكن مستوعب أفضل بكثير من قراءة نص كثير دون استيعاب وشعور. وكلنا نعرف أن مشركي مكة كانوا يقومون بأنواع الضجيج والضوضاء، ليفسدوا الجو على المسلمين كي لا يتمكنوا من تكثيف أنفسهم على القراءة السليمة، كما كانوا يقولون: "**لا تَسمعوا لِهذَا القرآن والْغَوا فيه لعلكُم تَغْلِبون**" (فصلت، الآية 26).

وهكذا فإننا نجد أن الأذن والعقل والقلب هي المراكز الثلاثة المختلفة ولكنها المتعلقة ببعضها لنفوذ الخطاب الإلهي إلى الإنسان؛ والخطاب السماوي ليس للاستماع فقط بل في الحقيقة للاستصغاء لما يقصد في مستوى الاستيعاب. وهنا فان القرآن الكريم طافح بالذكر. "**ولا تَكُونُواْ كَالذين قَالُوا سمعنَا وهم لا يسمعون**" (الانفال، الآية 21) "**ومنهم من يستمعون إليك أَفَأَنتَ تُسمع الصم ولو كَانُواْ لا يعقلُون**" (يونس، الآية 42).

وكلنا نعرف ان رسول الله – ص- قد منع المسلمين من تلاوة القرآن بصوت جهوري ولكن بأسلوب مختلف عند وجودهم جماعات في المسجد: **ألا إن كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة.**[8] وبناء على ذلك من المستحب أن يتلى القرآن بصوت خافت مفهوم وفي مستوى استيعابي يمكن تتبعه. وهذا الأسلوب يسمى في القرآن الترتيل "**أو زد عليه ورتل القرآن تَرتيلاً**" (المزمل، الآية 4).

وخلاصة القول فإننا في هذا القسم نستطيع أن نقول إن تلاوة القرآن تلاوة تنبع من أعماق أنفسنا في جو ملائم لحواسنا السمعية والقلبية والعقلية معا لا مفر منها لفهمنا الإشارات الإلهية فهما سليما عن طريق الخطاب السماوي كي ننقاد ضمن الدليل المتعال، بهدف منح الحياة معناها الحقيقي.

المبحث الثالث
شروط استيعاب القرآن استيعابا سليما

لقد نزل القرآن وحياً على رجل أمي قد اصطفاه الله من بين قومه، لا يقرأ، ولا يكتب، بلسان قبيلته قريش التي تسكن في مكة بمنطقة الحجاز في عام 610 هـ. " **وما أرسلْنَا من رسولٍ إلا بلسانِ قَومه لِيبيّن لهم**" (ابراهيم، الآية 4). وقد انزل باللغة العربية. وهو نص يتميز باللغة التي تنسب إلى البشرية. والقرآن نوعا ما رسالة أنزلها الله على مستوى الإدراك البشري، مسخرا قسما من إرادته المتعلقة بالمخلوق، ومستخدما الوسيلة البشرية. وهنا يجب لفت النظر خاصة الى أن القرآن نص لغوي، ويجب عدم غض النظر عن هذه الميزة لفهم القرآن فهما صحيحا ولا ابعادها عن الخواطر.

ونود ان نقيم هنا شروط فهم القرآن فهما صحيحا في أربع نقاط رئيسية هي:

1- من زاوية النص

الحتمية الأولى لاستيعاب القرآن من ناحية النص، هي السيطرة على اللغة في المستوى المطلوب. فكما هو معروف فان اللغة العربية لغة غنية واصيلة بما فيه الكفاية. وان تنزيل البلاغ إلى مستوى الاستيعاب المحدود، يدعو إلى حتمية استعمال جميع عناصر وميزات هذه اللغة وبصورة تامة؛ وهذا أمر طبيعي، وهذا هو المستعمل في الحقيقة، ولهذا فلا مفر من الاعتبار بجدية وحساسية موضوع اللغة. ونجد اللغة في كتب أصول التفسير، تحتل المرتبة الأولى عند شرحها لمبادئ فهم القرآن بشكل سليم.[9]

والى جانب استناد النص المتلو الذي يتضمن الرسالة، على اللغة التي ما هي إلا إحدى الصفات البشرية؛ فمن الطبيعي أن تؤدي إلى بعض التساؤلات في ذهن القارئ وستشكل أسئلة في ذهن المسيطر على لغة النص، عند تلاوته له، تتعلق بالنص. وقد يتبادر الى ذهنه سؤال: بماذا يأمرني الله في هذه السورة او الآية؟ او ماذا يستهدف منها؟ وبما أن الله قد اختار الإنسان ليخاطبه عن طريق الوحي، فبماذا يأمر كلامه المنصوص يا ترى؟ وبتعبير آخر، ماذا يوازي ويستهدف الكلام المنصوص؟ والمهم هو أن اصح جواب على سؤاله هذا لا يجده إلا بتبليغه الذي سطره كتاب الوحي ووصلنا بشكله الأصلي الموجود في المصاحف لأن القرآن بعينه عند ما يتكلم عن القرآن يقصد النص الأساسي هذا، فعلى سبيل المثال عندما يقول:"**فاقْرؤُوا ما تَيسر من القرآن**" (المزمل، الآية 20)، ليس المقصود ترجمة القرآن إلى لغة ثانية بل المقصود هو النص الأساسي بعينه. وبعكس النصوص السماوية السابقة عند الإمعان فيما يريده الله بالضبط من عباده، في القرآن المنزل بنصوصه الأصلية، ولحفظ الله له من الاندثار (الحجر، الآية 9) لهي نعمة كبيرة لاشك فيها.

والخاصية الأخرى التي يتحتم علينا الوقوف عندها عند تحليلنا للنص الأصلي للقران هي الأخذ بمعاني الألفاظ في اللغة العربية في أثناء نزوله بها بنظر الاعتبار، والتحور كما هو معروف قانون طبيعي نافذ مادام التاريخ والحياة، وكما هي الاستمرارية خاصية من خواص التاريخ، فالاستحالة والنشوء التي تجري في التاريخ تتصف هي أيضا بالديمومة، وهذا هو ناموس الحياة. فاللغة أيضا من ناحية ظهورها واستدامتها لحيويتها، والتي تشكل قسما من التاريخ، تطورت بصورة مستمرة حسب الناموس المطبق وتعرضت إلى تبدلات مختلفة بنسبة تطورها، وعلى هذا فمن البديهي الاستناد على فهم معاني ألفاظ القرآن الكريم الذي انزل قبل حوالي 1430 سنة مضت على البشرية؛ حين فترة النزول. وافضل مثال على هذا نستطيع أن نقدمه للقارئ هو كلمة "التأويل".

وحسبما نتذكر فان كلمة التأويل تستخدم بكثرة مع كلمة التفسير، وعرفت بـ"حمل الظاهر على المحتمل المرجوح"[10]. وبالانطلاق من هذا التعريف جرت مناقشات ومداولات كثيرة حول تأويل معاني الآيات المتشابهات الموضوعة للبحث كما في الآية: "**هو الذي أَنزلَ عليك الكتَاب منْه آياتٌ محكَمَاتٌ هن أم الكتَابِ وأُخَر متَشَابِهاتٌ فَأَما الذين في قُلُوبِهِم زيغٌ فَيتبِعون ما تَشَابه منْه ابتغَاء الْفتْنَة وابتغَاء تَأْويله وما يعلَم تَأْويلَه إِلا اللّه والراسخُون في الْعلْمِ يقُولُون آمنا بِه كُلٌ من عند ربنَا وما يذَّكر إِلا أُولُواْ الأَلْبابِ**" (آل عمران، الآية 7).

وعندما يبدي العلماء الذين ينطلقون من هذه الزاوية آراءهم حول الآيات المتشابهات يدعون بان تأويلها عند الله تعالى فقط، ومن هذا المنطلق نستنتج أننا لا نستطيع فهم معظم آيات القرآن بمعناها الصحيح، بينما نرى أن كلمة التأويل، إن كانت من ناحية كيفية استعمالها في القرآن الكريم نفسه أو من ناحية اللهجة العربية المستعملة في الفترة التي نزل بها القرآن، تعني "آخر مطاف الشيء، وكنه الشيء، وحالته النهائية، أو إطاره"[11] وإذا ما استمررنا بنفس التقارب من زاوية كلمة "المتشابهات" مستندين على مبدأ "قياس الغائب على الشاهد" خاصة عند إيضاح الحقائق الغيبية، نرى أن من المستحيل وصف الغائب بتشبيهه على ما نشاهده

(المتشابهات) ونلمسه، ولا نستطيع أن نقف على حقيقته او نفهمه إلا في مستوى ما يتصوره الخيال البشري، لان الأبعاد الحقيقية للغيب وتأويلها لا يعلمها إلا الله تعالى.

والسؤال الثاني الذي يطرحه القارئ خلال سيره في التوصل إلى المفهوم الصحيح منطلقا من النص الأصلي للقران؛ هو: على أي معنى يدل ظهور الكلمة التي توصلنا إلى لفظه بالذات؟ وبتعبير آخر نستطيع أن نسأل: ما هي غاية الله من آياته؟ وما الهدف الإلهي الذي يريد أن يبرهنه؟ ويا ترى، لماذا يحدثنا الله بهذا؟ وما هذه إلا نقطة تتوقف العبارة فيها لا غير! والآيات الأولى من سورة الحجرات (49/1-7) لهي من بين افضل الأمثلة التي نستطيع أن نسوقها في هذا الموضوع. ومعنى الآيات المذكورات التي تبدأ بـ" **يا أيها الذين آمنُوا لا تُقدموا بين يدي الله ورسوله واتقُوا الله إن الله سميعٌ عليمٌ**" لهي مفهومة من أول ألفاظها، ولكننا لو اكتفينا بما تدل عليه هذه الألفاظ دون بذل المجهود لفهم ما تقصدها فإننا لن نكون قد وفرنا الخلفية الكافية لفهم الغاية الربانية وتطبيقها. وهكذا، فإن الرسالة التي تحمل في طياتها تعابير غاية في الأهمية والتناسق والتي طرحت أمامنا، سوف لاتجد التجاوب المنعكس المتوقع لها في الأذهان والقلوب.

2- من زاوية تاريخية النص

صحيح أن القرآن قد انزل على قوم في فترة محدودة، إلا أنه يلائم جميع العصور والأماكن. وعندما ننعم النظر في هذه الزاوية نرى أن القرآن كتاب حقيقي يتناول جميع حقائق الحياة السائدة. وقد انزل على مراحل وتدريجيا خلال فترة 23 سنة من الزمن. وهو ينبض بالحياة والفعالية لإيمان الجيل به لكونه المرشد الوحيد للحياة. إن القرآن قد جسد رسالته العالمية في عقائد وافعال جماعة مستهدفة في أثناء مراحل نزوله، لتكوين إنسان جديد بل ومجتمع جديد، وقد نجح في تحقيق ذلك ايما نجاح، وهنا فان السؤال: من هو المخاطب الأول المعرض إلى الخطاب السماوي، يكتسب أهمية كبيرة. وهكذا فإننا نرى ان تثبيت المخاطبين الأوائل، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد او على مستوى الجماعات التي آمنت بأفكار معينة، غاية في الأهمية لقراءة الرسالة قراءة صحيحة، وقد طورت كتب الأصول القديمة اصطلاح نظرية "أسباب النزول" عند القيام بالبحث عن ردود لمثل هذه الأسئلة، وهكذا فإننا نسمي أية حادثة وقعت في أثناء نزول القرآن، او سؤال موجه إلى الرسول -ص- أو أدى إلى نزول آية أو اكثر؛ أو الحادثة التي تصور المحيط النازل فيه الوحي؛ سبب النزول[12]. والمؤكد أن هذه النظرية ليست مطلقة؛ إلا أنها من أهم الخطوات التي تؤدي إلى فهم الغاية السماوية. وهناك إشارات عديدة في آيات مختلفة على أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأسماء الجنس، والضمائر، وظروف الزمان النكرة، وظروف المكان، والمفردات التي تعبر عن الكميات، وعن بعض الحوادث التي وقعت في أثناء النزول، وإن هذه الإشارات تتضمن بعض المبهمات المتميزة. ومن دون شك فان هذه المبهمات -رغم إيماننا بأنها ستسبغ صفة العالمية على الرسالة- حينما أسسنا مبادئها العالمية حسب الحادثة الواقعية منطلقين من الأمثلة المشخصة وبتثبيت المخاطبين الأوائل لها ستكون في نطاق المعقول وسيزول الابهام.

ونحن متأكدون من أننا لو سردنا مثالين فقط من الامثلة المتعددة، لإيضاح ما نبغي في هذا الميدان، فستكون وافية للأمر.

أولا: إن الآية 115 من سورة البقرة يقول الله فيها: "**ولله المشْرقُ والمغْرب فأينما تُولوا فثم وجه الله إن الله واسعٌ عليمٌ**"، ولأول وهلة نرى ان هذه الآية تخالف معنى الآية 144 في نفس السورة، ولكننا عند تثبيت المخاطبين الاولائل بها فسيزول هذا الالتباس من ناحية، وسنكون قد اكتشفنا القاعدة العالمية السارية المفعول من ناحية اخرى. والحادثة المتعلقة بسبب نزول الآية المعينة، مندرجة في مصادرنا كالآتي:

حسب رواية جابر بن عبد الله؛ كان الرسول – ص- موجودا ضمن إحدى السرايا العسكرية التي جهزها للخروج. وعندما خيم الظلام أراد المسلمون أن يؤدوا صلاتهم فظهر بينهم اختلاف حول تعيين جهة القبلة، وحسب الاجتهاد الذي توصلوا إليه حينذاك أدى قسم منهم صلاتهم متوجهين نحو الشمال والقسم الآخر نحو الجنوب. وعند انبلاج نور الصباح ظهر لهم أنهم لم يصيبوا في اجتهادهم، فجاءوا الرسول – ص- واخبروه بما وقع؛ وعندما امتنع الرسول – ص- عن الإجابة وظل صامتا نزلت هذه الآيات.[13] وعندما تتبادر الى أذهاننا الحوادث الحية، كما في هذه الرواية وما شابهها من الروايات، فهي تزيل الملابسات المحتملة في النص قبل كل شيء، مثلما تضع أمامنا أوضاع المسلمين المختلفة في العبادات زمانا ومكانا. والتحليل الذي نتوصل إليه في هذه الرواية هو أن القبلة شيء رمزي، فبالرغم من الامر المؤكد بالتوجه اليها فان الغاية من أداء عباداتهم قد تحققت بالتوجه نحوها وان لم يصيبوا ذلك بالضبط؛ وهذا هو الأساس.[14]

ثانيا: لقد اخبرنا الله في الآيات 173-175 من سورة آل عمران بـ" **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم**

فَاخْشَوهم فَزادهم إيماناً وقالُوا حسبنَا اللّه ونعم الْوكيلُ. فَانقلَبوا بِنعمة من اللّه وفَضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان اللّه واللّه ذُو فَضلٍ عظيمٍ. إنما ذَلكُم الشيطان يخَوفُ أَولياءه فَلا تَخَافُوهم وخَافُونِ إِن كُنتُم مؤْمنين."

فإننا لو أنعمنا النظر في هذه الآيات، لوجدنا أن هناك بعض النقاط المبهمة تحتاج إلى جواب لفهم الغاية الربانية فهما صحيحا في نفس المخاطبين الأوائل. فقد نزلت الآية بعد وقوع حادثة فعلا، فقامت بواجب إرشاد أبطال الحادثة إلى الصواب. إذا أين، ومتى، وبين من جرت هذه الحادثة؟ وكيف تطورت؟ ومن الطبيعي أن التعابير المبهمة، بوضعها الرسالة في مركز رمزي لبعض الأذهان وللذين يعتنقونه، قد أسبغت عليها صفة عالمية، ومن الضروري طرح جميع أبعاد الخاص أمام الأنظار للوصول منه إلى الأعم.

هذا وانه عند شرح التعابير "الذين" و"قال لهم الناس" و"إن الناس قد جمعوا لكم" و"إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه" الموجودة بصورة مبهمة في هذه النصوص، بعد تثبيت أسباب نزولها، ستجد لها تجاوبا في الأذهان.[15]

وإن الإجابة على السؤال: أين ومتى يأمرنا القرآن بذلك؟ تشكل خطوة مهمة من بين خطوات إدامة الفعالية الذهنية، لرفع الستار التاريخي للنص المتلو. وبتعبير آخر، فان إثبات المراحل التاريخية طوال نزول الآية خلال 23 سنة و"بيئة النزول" غاية في الأهمية[16] لو تلقينا مراحل الأحكام المختلفة كمشكلة، ونتيجة طبيعية للتدريجية، حينئذ يجب الأخذ بالنظرية المسماة "الناسخ والمنسوخ" بعين الاعتبار، وتطوير طريقة لحل هذه المسألة. والنقطة المهمة التي تتعلق بهذا الخصوص والتي يجب عدم ابعادها عن الأذهان هي موجودية المكان والزمان لتطبيق أي حكم من أحكام القرآن الذي يحاول أن يجد لنفسه مخاطبا في أي زمان ومكان. والمهم أن ننطلق مستندين على الأمثلة الماضية على الزمان والمكان، لنحدد الزمان والمكان الصحيحين المتعلقين بيومنا هذا والمرتبطين بتلك الأحكام. ودليل الكلام القديم الذي يخاطب الإنسان على الأكثر "يختص بالفرد"، وكل فرد يستطيع أن يستفيد من منبع تلك الرحمة، كل حسب استعداده وظروفه وقابليته. ونقدم مثالين لنوضح ما نقصد من "بيئة النزول".

أولا: يأمرنا الله تعالى في الآية 195 من سورة البقرة بـ" **وأَنفقُوا في سبيل اللّه ولا تُلْقُوا بِأَيديكُم إِلَى التهلُكَة وأَحسنُوا إِن اللّه يحب الْمحسنين**".

إن لم نأخذ بيئة النزول في عبارة "ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة" في هذه الآية، ستنفصل عن المحيط الملائم للغاية الإلهية، وتستخدم حسب الأهواء كدعامة تستند عليها في غايات مختلفة. وعلى سبيل المثال، نلاحظ أن كثيرا من الخطباء اليوم، يستندون على هذه الآية لاداء واجبهم في تحذير الجماعة تجاه بعض العادات الضارة وردعهم عنها. ومن غير شك فإن تكوين الآية اللفظي يلائم أن يكون مصدرا لمثل هذه الأغراض؛ إلا أن بيئة نزول الآية والرسالة التي بلغتها حينذاك، ليست لها أية علاقة بالمسألة التي تجابهنا اليوم بتاتا، فكما نرى حين ظهر رأي في بيئة قريبة من آراء اليوم فان الصحابي أبا أيوب الأنصاري الذي عاش بيئة نزول هذه الآية يتدخل في الموضوع ويقول: أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وأكثر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض سرا من رسول الله – ص-: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله هذه الآية يرد علينا ما هممنا به.[17] وحين ندقق النظر نجد أن هذه الآية تشير الى الخطورة التي يتعرض إليها الفرد والمجتمع إذا ما أهمل الإنفاق المرجو لتوفير التجهيزات أو التعبئة الضرورية بالإضافة الى التقاعس عن الجهاد المطلوب استمراريته للمحافظة على التوازن الدولي.

ثانيا: أخبرتنا الآية 93 من سورة المائدة بـ" **لَيس علَى الذين آمنُوا وعملُوا الصالحات جنَاح فيما طَعموا إِذَا ما اتقَوا وآمنُوا وعملُوا الصالحات ثُم اتقَوا وآمنُوا ثُم اتقَوا وأَحسنُوا واللّه يحب الْمحسنين**"

في الوهلة الأولى قد نتوصل من هذه الآية إلى نتيجة أن الذين آمنوا وقاموا بالحسنات لا يضرهم إن كانوا قد أكلوا أو شربوا من المحرمات. واستنادا الى المعلومات التي تسردها المصادر لنا، نرى ان هناك بعض الصحابة قد اقتنعوا بان الخمر حلال بدلالة هذه الآية، وذلك لعدم وقوفهم على لب الموضوع بحق في السنوات الأولى من الإسلام[18] بينما نزلت هذه الآية لتوضح وضع المسلمين الذين ماتوا قبل نزول الآية (المائدة، الآية 90) التي تبلغ تحريم الخمر تحريما قاطعا[19].

3- من زاوية الأسلوب

إن القرآن الكريم، كتاب هداية انزل على البشر، يستعمل جميع الأساليب الأدبية التي تحتويها اللغة والتي تمهد لفهمه، لتحقيق هدفه الإرشادي العالمي. وهنا حين ينطلق بعض رجال العلم من فكرة تنزيه الله تنزيها ما بعده من تنزيه، فرغم إنكار بعض منهم[20] والذين يدعون استحالة اكساء التبليغ الإلهي على بعض قوالب الكلام البشري؛ فانه عند تدقيق النصوص القرآنية لغرض الفهم، سيظهر عكس ما

يدعيه هؤلاء. واكبر دليل على هذا هو ذكر القرآن لبعض أقوال المعتقدات المختلفة ونقل الردود عليها سواء كان ذلك في الماضي أو في أثناء نزوله؛ إلى حد انه يكاد ان ينزل الوحي لأي كلام ينطق به أحد أصحاب الرسول – ص- بمناسبة أية حادثة تقع في أثناء حياتهم في حينه. وعلى سبيل المثال؛ فإننا نرى أن قول عمر – رضي الله عنه- "**عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن**" لنساء النبي – ص- اللاتي اتفقن على مقاطعته، قد انزل وحيا (التحريم، الآية 5)، ومن هذه الزاوية فانه يجب على قارئ القرآن خلال فترة التفكير المتعاقب للفهم أن يوجه السؤال نفسه في هذا الموضوع وهو كيفية إبلاغ القرآن رسالته. ومن ناحية الإجابة على: كيف هذه؟ يجب الانبعد عن أنظارنا الخاصيات التالية:

يمكن تقسيم القرآن من ناحية محتواه الى قسمين؛ الأول: المبادئ الأساسية التي تسمى بالمحكمات، والثاني: هو ما نسميه اللوازم والتي تسمى بالمتشابهات[21]، وحين طرح أسلوب التفهيم الذي يعبر عن الحقائق في الآيات المحكمات، نرى أن الآيات المتشابهات تعبر في الغالب عن التعابير المجازية، ومبدئيا فان الأساس هنا هو تفسير الآيات المتشابهات بدلالة الآيات المحكمات[22].

وعند الإمعان في هذا الإطار، نرى أن النصوص التي تشغل جزءا من القرآن والتي تتعلق بالآخرة، معظمها من المتشابهات، وتأتي على رأس المواضيع الغيبية. وهنا فإن تقييم موضوع الله، والجنة، والنار، والحشر، والقيامة ضمن هذا الإطار، ومن ناحية فهم القرآن فهما سليما، غاية في الأهمية. والنقطة التي يجب عدم غض النظر عنها هي: أن القرآن خاصة قي المواضيع الغيبية ليس بكتاب معلومات بل كتاب هداية لتكوين التصور المؤثر، ومن غير شك فهناك آيات محكمات وواضحات تتعلق بهذه المواضيع، إلا أنها من ناحية العدد تشكل القلة.

ونظن أنه من المفيد أن نسوق بعض الأمثلة لتوضيح هذا الموضوع. وعلى سبيل المثال، هناك تصاوير تبهر في القرآن الكريم، عن الحياة في الجنة. فإذا أنعمنا النظر رأينا أن اغلب النماذج في هذه التصاوير تستند على عناصر معروفة ومشهورة ومثالية في الجزيرة العربية في أثناء النزول. ونستطيع أن نقول إن الإنسان يجد في هذه التصاوير ما يجذبه إليها جذبا في كل العصور. وهذا صحيح، إلا أنه لو تحقق نزول القرآن في مكان وزمان مختلفين فهل كنا نستطيع أن ندعي بأن النماذج التي استعملها كانت ستختلف؟ بينما لو توغلنا في مسالك هذه النماذج فإننا سنرى أن معظمها قد استلهمت من الرموز التي تستوجبها ظروف الصحراء. وعلى سبيل المثال فان كلمة الخيمة التي جمعها على صيغة الخيام (الرحمن، الآية 72) تحتل مكانها ضمن تصاوير الجنة، وهذا أسلوب واضح التأثير في تحريك مشاعر إنسان ذلك العصر. وفي موضع آخر (الانسان، الآية 13) بالرغم من التحدث عن غياب الشمس، فانه يتحدث في مواضع عديدة (النساء، الآية 57؛ يس، الآية 56؛ الواقعة، الآية 30) عن الاستظلال بالظلال الوارفة؛ وهذه التعابير دون شك ذات مغزى كبير جدا لسكان منطقة الحجاز التي تتحكم فيها الحرارة المحرقة. وبما أن جميع هذه التصاوير تدخل ضمن المتشابهات فالأسلم هو تفسيرها بالآيات المحكمات المتعلقة بنفس الموضوع. ونحن نعلم من المعلومات التي نستقيها من المصادر أن تطبيقات رسول الله – ص- أيضا كانت بنفس هذه الطريقة. وعندما سأل بدويان النبي – ص- عن توافر الخيل والجمل في الجنة لحبهما الجم لها، أجابهم بردود مثبتة ثم قرأ عليهم بعض الآيات المحكمات في هذا الموضوع؛ "**وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون**". (الزخرف، الآية 71)[23]، هنا كأن رسول الله – ص- يقول للبدوي: أنت اهتم بالدخول في الجنة أولا، فان رغبتك هذه قد تختلف عن ما هي عليها الآن هناك، ولو كانت لك رغبة في شيء ما، فهي كما عبر بالآيات المحكمات؛ ستجد هناك كل ما تشتهيه نفسك، لان القرآن يخبرنا أيضا، بان البعث في الحياة الآخرة، هو غير ما نعرفه ونشاهده (الواقعة، الآية 61)، ولهذا السبب، فان العيش في الدنيا والحياة في الآخرة يختلفان كل الاختلاف، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى اختلاف الرغبات أيضا.

وبنفس الشكل نرى أن الشروحات المتعلقة بالغيب الأكبر والذي هو الله جل جلاله تسرد على شكل تصاوير. ولا نستطيع أن نقوم بهذا التثبيت إلا منطلقين من اللغة التي تحوي الطراز البشري في التعبير الذي نراه في أسلوب الآيات التي تفسر لنا صفات الله [24]. وبما أن الإدراك البشري يستحيل عليه أن يحيط بمعلومات عن الله، فلا مفر من أن نسلم بأنه يتخيل تصوير الله فحسب، وهذا التصور والقسطاس الذي يوفر موازاتها لأهداف القرآن يمثل مكانه في الآيات المحكمات في هذا القسم:"**ولم يكن له كفوا أحد**" (الاخلاص، الآية 4)، "**ليس كمثله شيئ**" (الشورى، الآية 11).

وفي نفس الميدان نستطيع أن نقول انه من الصعب الوصول إلى النتائج الناجعة، من ناحية تحقيق غاية القرآن في سرد مثل هذه القصص، بقراءة مبادئ علم التاريخ، المروية عن قصص الأنبياء والحوادث التاريخية لمعلومات

ساندة؛ إذ ان الحوادث التاريخية وقصص الأنبياء ما هي إلا نقاط إشارة، وأحجار الحدود. ونود أن نؤكد هنا أننا لا نقصد ان القصص هي مثل الملاحم والأساطير التي لا اصل لها واخترعها الشعور الجماعي في المجتمع خلال التاريخ، بل هي حوادث قد وقعت خلال التاريخ ونقلت إلى المخاطبين بأسلوب سماوي. والقصص تعكس العلاقات الموجودة بين التاريخ ومجتمعات البشر، وتشرح علاقة الله بالتاريخ والمجتمع.

4- من زاوية تكاملية النص

فكما هو معروف ان القرآن هو كلام الله الذي تحقق مع الإنسان، ولهذا فان الإنسان هو الذي يشكل محور اهتمامه، وخاصة إذا ما أخذنا فترة النزول بعين الاعتبار، لنقول ان هذا الخطاب الذي يجري مع الإنسان نفسه، على انه كائن عاش في زمن ومكان معينين من الفترة التاريخية، فإننا نستطيع أن نقول إن النص الخطابي متداخل تداخلا وثيقا مع التاريخ. فكما مر من قبل يجب كتابة الجملة التالية بحروف بارزة من جديد؛ وهي أن القرآن الكريم لم يدون مرة واحدة بعد تخطيط وترتيب، ولم يدونه أحد في جلسة ومرة واحدة، بل يتكون من كتابات دونت بطريق مقابلات الوحي خلال مدة اكثر من عشرين عاما في أجزاء، بعد مجابهة النبي – ص- لأسئلة ومسائل. وعند الإمعان في القراءة بعين نفاذة فإننا نرى ان القرآن نص حي للغاية مرتبط بالتاريخ من عدة نقاط.

فإذا نظرنا من هذه الزاوية فإننا نرى ان القرآن وكأنه تفسير إلهي خلال فترة من التاريخ، متعلق بتصرفات ومواقف الرسول – ص- عند تبليغه لرسالته كي يكون "رسولا" من ناحية و"نموذجا" من الناحية الأخرى. وبالانطلاق من هذه الزاوية، فانه من العبث أن نقول إن القرآن نص يصادق أفعال محمد – ص- ويجري وراء تصرفاته فحسب. بل ان القرآن ساحة، لها مغزى في الحياة من ناحية، بتفاسيره الجديدة؛ ويستمر بسيره من ناحية أخرى كـ"ولي" (الاعراف، الآية 3) لتصحيح وتفسير كفاح النبي- ص- في قراراته الثابتة. ولهذا فان الطريق الوحيد والسليم لفهم اولية القرآن التاريخية هو متابعة حياة الرسول – ص- ككل، والأخذ بنظر الاعتبار ما يسعى إليه من فعل أو قول في سبيل إظهار الغاية الإلهية.

ويجب أن نضيف هنا حالا، أن القرآن يقدم لنا نظرة عالمية متكاملة بمعناها العام، وهذه النظرة تتضمن معنى كل شيء ولها مكانة ذات مغزى داخل التكاملية، ولهذا يجب الأخذ في فهم أية آية بنظر الاعتبار، من حيث ما تقع، من هذه التكاملية، ان كانت تعبر عن حكم او موعظة او تحذير او عبرة.

وعند الإمعان في تكاملية القرآن داخل نفسه، يجب الانتباه على "العلاقات الطبيعية" المسمى "السياق والسباق" في الآيات.

ولهذا السبب، وقبل أي شيء، يجب الأخذ بموضوع الآية التي تسرد في النص، بنظر الاعتبار. وكمثال على هذا؛ نستطيع أن نتخذ الآية (96) من سورة الصافات عنصرا للموضوع. فان الله تعالى يبلغنا في الآية المعنية "**واللهُ خَلَقَكُم وما تَعملُون**" والآية في مغزاها أصبحت مسألة كلامية تتناقش حول "خلق الأفعال"، بينما نرى أن سياق وسباق الآيات من نفس السورة (83-112)، تتحدث عن كفاح إبراهيم عليه السلام مع قومه. وهنا يؤكد إبراهيم عليه السلام لقومه أنه لا يعقل أن يعبدوا أصناما نحتوها من الحجارة بأيديهم؛ وان الله هو خالق كل شيء، وخالقهم وأصنامهم التي نحتوها بأيديهم. وبإخراج كلمة "العمل" العابرة في الآية، عن معناها الطبيعي ثم الأخذ بمعناها الاصطلاحي، فمن المحتمل أنها لا تشكل سندا ذا فائدة لغير هذه المناقشة، ولا تكون غير تمرين ذهني فحسب، بينما الأهم من ذلك، ستفلت الغاية الإلهية، المستهدفة بالآية المعنية، من الأنظار. وهناك أمثلة كثيرة على هذا، إلا أننا لا نريد أن نتمادى في مقالتنا الصغيرة فنكتفي بهذا القدر.

والساحة الثانية للتكاملية، وجوب تثبيت الموقع الصحيح للمحتوى العام للقران في الموضوع المدروس، وسنكتفي بمثالين في هذا القسم. فعندما يذكر الله في الآية (53) من سورة الزمر أنه "**يغْفر الذنُوب جميعا**" ويذكر في الآية (116) من سورة النساء أنه: **لا يغْفر أَن يشْرك به ويغْفر ما دون ذَلِك لِمن يشَاء**". والمثال الآخر هو في موضوع الغيب، وفي آيات عديدة من القرآن يؤكد على انه لا يعلم الغيب إلا الله (النمل، الآية 65؛ الأعراف، 188). وفي الآيات (27-28) من سورة الجن، والآية (189) من سورة آل عمران يذكر الله أنه سيطلع على من يجتبي من رسله قدر ما يشاء.

ومن ناحية ضرورة فهم الآيات في القرآن في انسجام كلي، فان كتب الأصول القديمة اخذتها على شكل "تفسير القرآن بالقرآن". وابعد من ذلك فقد أكدوا أن افضل تفسير للقران هو هذا النهج[25].

خلاصـة القول

1- إن القرآن الكريم جواب الهي الى جميع البشرية الذين تشغل الأسئلة والمسائل أذهانهم في أية فترة من فترات

التاريخ. وتستند معرفة ما يستهدفه الجواب، بدرجة كبيرة على معرفة محتوى السؤال والتكوين الفكري للسائل، وان كل آية أو تفسير الهي بمثابة المفتاح المطلوب، فعلينا أن نختار المفتاح الصحيح للأبواب. ولتوثيق الألفة والصداقة مع القرآن الكريم الذي يقدم نفسه مرشدا وهداية للبشرية إلى الطريق المستقيم، فمن الواجب أن نضعه أمامنا وفي محور حياتنا في كل زمان ومكان، فعندما لا يؤخذ القرآن بنظر الاعتبار عند تكوين الحياة وشؤونها يصبح القرآن كتابا مقدسا فحسب، لا يؤدي إلا "دعما جزئيا" لحياة الإنسان وإزالة بعض مسائله، وفي هذه الحالة يستحيل على القرآن أن يرشد كما وعد إلى "الطريق القويم والمتوازن".

2- لفهم مغزى القرآن حسب الغاية الإلهية، يجب قراءته قراءة صحيحة، ليس للقراءة المجردة فحسب، بل بتوفير البيئة والظروف التي تتوحد فيها الآذان والعقول والقلوب. وبهذا يكون مرتل القرآن قد أتم تمركزه الكلي للقراءة، واستسلم بمراكز حواسه إلى منبع الرحمة "للبث والاستسلام"، وهكذا يكون قد عاد إلى فطرته الأصلية والسليمة مجردا عن جميع شروطه المسبقة.

3- إن القرآن الذي يسمع ويحبذ ويتقبل دوره الذي تكفل به، يجب فهمه فهما صحيحا لتوفير أداء دوره هذا، والفهم الصحيح حادثة تتوفر عن طريق استمرارية المدة الطبيعية للفهم له، ولهذا وانطلاقا من زاوية كون القرآن خطابا قد تحقق باللغة العربية التي نجابهها، يجب في فهمه أن نكون مجهزين بكامل معلوماتنا عن هذه الوسيلة التي هي اللغة.

4- الى جانب السيطرة التامة على اللغة في المستوى المطلوب، ولغرض فهم هذا الخطاب الرباني فهما صحيحا، يجب اعتبار كون الوحي منزلا مباشرة على بشر مختار من بين الناس ليؤدي الرسالة ويبينها في فترة معينة من فترات الزمان والمكان في التاريخ، ويجب ايضا اتباع مراحل حياته بكل خطواتها لكونها مراحل نزول الوحي. ومن دون شك فإن هذا الإنسان هو محمد بن عبد الله - ص-. إذا، وفي هذه النقطة يجب السعي للنفاذ بقدر الإمكان في عقل وروح وقلب محمد - ص-، لأنه ليس أول من يبلغ ويشرح الخطاب الإلهي فقط، بل هو المخاطب الأول المكونة شخصيته في ضوء هذا الوحى تكونا صحيحا والذي يؤمل منه المسؤولية في نفس الوقت. وقد أمر أن يكون أول المسلمين؛ فاستمر بشخصيته هذه كما أمر حتى وفاته، دون تكاسل أو تقاعس أو زيغ. ولهذا من الضروري دراسة الحياة الاجتماعية والثقافية والتاريخية المحيطة بالنبي – ص- دراسة وافية ودقيقة.

الهوامـش

(1) الزرقاني، مناهل العرفـان فـي علـوم القـرآن، 12/1؛ الصالح، مباحث في علوم القـرآن، ص21؛ أبـو شـهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص 20.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 273/1.

(3) ابن منظور، لسان العـرب، 498/2-499؛ ابـن كثيـر، تفسير ابن كثير، 61/1؛ الصابوني، روائع البيان تفسـير آيات الأحكام، 18/1.

(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 183/3؛ الطبري، تفسير الطبري، 111/1؛ القرطبي، الجـامع لأحكـام القـرآن، 90/1.

(5) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، 359/2.

(6) الزمخشري، الكشاف، 5/1؛ ابن عاشور، تفسير التحريـر والتنوير، 146/1

(7) الرازي، التفسير الكبير، دون تاريخ ومحل الطبع، 99/1؛ Yazır, Elmalı'lı Hamdi, *Hak Dini Kur'ân Dili,* İstanbul, 1979, I/17-18.

(8) أبو داود، الصلاة، 315.

(9) السيوطي، الاتقان في علوم القران 185/4-186؛ العـق، اصول التفسير وقواعدها، 186؛ عطـر، علـوم القـران الكريم، 87-88.

(10) الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق علـم الأصـول، ص 298؛ الذهبي، التفسير والمفسرون، 22؛ زيدان، الـوجيز في اصول الفقه، 287.

(11) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 158/1

(12) Serinsu, Ahmed Nedim; *Ku'rânın Anlaşılmasında Esbâb-ı Nüzulün Rolü,* İstanbul; 1994, s.68.

(13) الواحدي، اسباب نزول القران، 40.

(14) القرطبي، نفس المرجع السابق، ج2، 80-81.

(15) راجع الواحدي لاسباب نزول الاية المعنية، نفس المرجع، 135؛ السيوطي، أسباب النزول، 69.

(16) دروزة، القرآن المجيد، ص122.

(17) الواحدي، نفس المرجع، 60؛ الطبري، التفسـير، 590/3؛ السيوطي، نفس المرجع، 37.

(18) القرطبي، نفس المرجع، 298/6؛ الشاطبي، ابو اسـحق، ابراهيم، الموافقات، 333/3.

(19) الواحدي، نفس المرجع، 212؛ السيوطي، نفس المرجـع، 118.

(20) الزركشي، البرهان، 255/2؛ السيوطي، الاتقان، 109/3.
(21) دروزة، نفس المرجع، 134.
(22) البيضاوي، تفسـير البيضـاوي، 239/1؛ الطباطبـائي، الميزان في تفسير القران، 24/3- 25.
(23) القرطبي، نفس المرجع، 114/16؛ السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، 392/7.
(24) ماجد، لغة الطرز البشري للقران، 43.
(25) راجع للوصول إلى منهج ومعلومـات أوفـى، Albayrak, Halis, *Kur'ân'ın Bütünlüğü Üzerine,* İstanbul, 1992.

المصادر والمراجـع

ابن عاشور، محمد طاهر، تفسير التحرير والتنوير، تونس، 1984.

ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، بيروت، 1991.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير ابن كثير، مكتبة زهران، بدون تاريخ.

ابن منظور، لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ.

أبو داود، السنن، استانبول، 1981.

أبو شهبة، محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم، القاهرة، 1992.

أحمد بن حنبل، مسند، اسطنبول، 1982.

البيضاوي، عبد الله بن عمر، تفسير البيضاوي، بيروت، 1990.

دروزة، عزة، القرآن المجيد، (ترجمة وحدالدين اينجه)، اسطنبول، 1998.

الذهبي، حسين، التفسير والمفسرون، بيروت، بدون تاريخ.

الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، بدون تاريخ ومحل الطبع.

الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مكة المكرمة، بدون تاريخ.

الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، (تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم)، بيروت، بدون تاريخ.

الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، بيروت، بدون تاريخ.

زيدان، عبد الكريم، 1972، الوجيز في اصول الفقه، بغداد.

السيوطي، جلال الدين، أسباب النزول، بيروت، بدون تاريخ.

السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، بيروت، 1983.

السيوطي، الاتقان في علوم القران (تحقيق: محمد ابوالفضل ابراهيم)، بيروت، 1988.

الشاطبي، ابو اسحق ابراهيم، الموافقات، (ترجمة: محمد اردوغان)، اسطنبول، 1993.

الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، (تحقيق: محمد سعيد البدري)، بيروت، 1995.

الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام، بيروت، 1980.

الصالح، صبحي، 1982، مباحث في علوم القرآن، بيروت.

الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القران، بيروت، 1997.

الطبري، أبو جعفر، تفسير الطبري، (تحقيق: م.م. شاكر وأ.م. شاكر)، القاهرة، بدون تاريخ.

عطر، نور الدين، 1993، علوم القران الكريم، دمشق.

العق، خالد عبد الرحمن، 1986، اصول التفسير وقواعدها، بيروت.

القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، طهران، بدون تاريخ.

الواحدي، ابو الحسن علي بن احمد، اسباب نزول القران (تحقيق: بسيوني الزغلول)، بيروت، 1991.

Why and How Should We Understand the Quran?

*Yashar Dozanly **

ABSTRACT

The Quran is the holy answer to those who have questions and problems with life and existence. The answer was inspired by God the Almighty in Muhammed son of Abdullah’s heart. The divine message firstly was transmitted by Him to His close neighbourhood from there to all humanity in accordance with its origin.

The Quran of today is the same as revealed to Muhammed in 610 AC. This holy message has been waiting for meeting those who are aware of problems and questions about life. We tried to express the reason why the meeting is necessary. The answer of how Quran describes itself actually puts forward why the human being should be connected with it. For the meeting takes place on the safe ground it has been explained how we should understand Quran.

KEYWORDS: The Holy Quran, the holy answer, to read, to understand, the text, the dialog.

* Othman Ghazi University, Aski Shahir, Turkey. Received on 8/9/2003 and Accepted for Publication on 15/8/2004.